

# الفصل العاشر

## شعر الطولونيين

كان للأدب العربي رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه في زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويمجّبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء في مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذي ازدهر الشعر في أيامه ازدهاراً عظيماً ؛ إذ مكّنه طول عهده في البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصد الأدياء . وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدياء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن أقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبني طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيراً .

١ - في عهد دولتهم ( ٢٥٤ - ٢٩٢ )

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبي والسياسي ؛ كما عرف فضل الكتابة في خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر في عهده وهو الأديب الذي يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين في دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحثري ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرتها ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج أبنته قطر الندى ، عاملاً يثير الشعر والخيال ، وكاد ما بلغه هذا الزواج من أهبة وإسراف في مظاهر الترف يفوق المروى في ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟ ثم تنازع أمراء بني طولون بعده حتى ذهبت ريجهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلاً من الأبيات في بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترمي الأدب ، وتجذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد سخارويه .

ولكنه لم يعد شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقرئى (١) نقل عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة » فى اتخاذ الحصن بالجزيرة « أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد ! وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شعر الميدان قليل وكاه فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعرٌ متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدق أن يكون أقدم ما بقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضاً ببنيان المارستان للعرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوهُ ويستثير الناس عليه (٢) :

ألا أيها الأغفال إيهياً تأملوا      وهل يوقظ الأذهانَ غيرُ التأملِ

الم تعلموا أن ابن طولون نعمةٌ      تُسَيِّرُ مِنْ سُقُلِ الْبَيْمِ وَمِنْ عَلِ  
ولولا جنایات الذنوب لما علت      عليكم يد العليح السخيف المتجول

فيا ليت مارستانه نيط بإسيته      وما فيه من علاج عطل مقلل  
فكم ضجة للناس من خلف ستره      تضح إلى قلب عن الله مُغفل

قضى في شعره توجيهاً للناس إلى الواجبات ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك  
إذ جمعه نعمة شاملة ، وجعل هذه النعمة بما كسبت أيديهم ، وأخذ من إصلاحه  
ومنشأته النافعة سخيرية وموضع هجاء ، فدنه ودم القاتلين على مستشفاه ،  
وأسف في هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فقدم إلى موسى بن بغا في صرفه  
عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه يجد في  
مخاربه ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ مقللاً له وحرمة . وبني كثيراً  
من المراكب الحربية وأطاقها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم  
اضطرب أمر أصحابه ، وتوفي في صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود<sup>(١)</sup> :

لما ثوى ابنُ بغا بالرقتين ملاً      ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب  
بني الجزيرة حصناً يستجيبُ به      بالعسف والضرب، والصناع في تمب  
له مراكب فوق النيل راكدةٌ      فما سوى القار، للنظار، والخشب  
يرى عليها لباس الذل مذنبت      بالشط ممنوعةً من عنزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبا لئلا بناها غداة الزَّوعِ للهرب  
وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ،  
ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كالبيت  
الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى  
إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب  
بجيش ، فبأمر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ (١) :

لله دري إذ أغدو على فرسي      إلى الهياج ونارُ الحرب تستمرُ  
وفي يدي صارمُ أفري الرءوسَ به      في حده الموتُ لا يُبقي ولا يذرُ  
إن كنتِ سائلةً عني وعن خبري      فيها أنا الليثُ والصَّمصامةُ الذِّكرُ  
من آل طولون أصلِي إن سألتِ فما      فوق لفتخر بالجدود مفتخرُ  
ورثت مجد أبي عنه ، وورثني      مجداً أناف به آباؤه الغررُ  
لو كنتِ شاهدةً كرى « بلبدة » إذ      بالسيفِ أضربُ والهجماتُ تبتدرُ (٢)  
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم      كأنهم حُمرُ والليث مقتسرُ  
إذاً لعابنتِ مني ما تسيرُ به      عني الأحاديثُ والأنبياءُ والخبرُ

وهو نخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء في أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :  
فانه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

(٢) لبدة : مكان المعركة .

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوي

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الوراق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الوراق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة<sup>(١)</sup> :

طال الهدى بابن طولون الإمام كما  
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها  
في جحفل ، المنايا في مقابله  
يسمو به من بني سام عطارفة  
لو أن روح بني كنداج معلقة  
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا  
يا أيها الناس هبوا ناصرين له  
مع الأمير يد لهم الخيل في اللام

وهذا مدح سياسي في غاية ، فالثناء على الوالي وأفعاله ، والدعوة إلى نصرته الخليفة ومن يدافع عنه يحمل في طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون في دفاعه عنه :

من مبلغ مضر الشام وما حوت  
ما بالكم هضم جناح سنانكم  
مصر ومن هو منهم أو منجد  
بتوا كل من فعلكم لا يحمده

أَتَى، وكيف يطيبُ من أحوالكم<sup>(١)</sup> ، خفض الميثة والإمامُ مقيدُ !  
حزان أفرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبي وأمي المستنظام المفردُ !

وقال منصف<sup>(٢)</sup> بن خليفة الهذلي يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ،  
وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً<sup>(٣)</sup> :

يا عُمرَةَ الدنيا الذي أفعاله غُررُ بها كل الوري تتعلَّقُ  
أنت الأميرُ على الشام وتغرِّها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ  
وإليك مصرُ وبرقةٌ وحجازها كلُّ إليك فؤاده متشوقُ  
هتك الخلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لِعِبا، والحسودُ الأخرقُ  
أسيافنا بيضُ المنونِ فليتها بنَجِيعٍ من خذل الإمامِ نُخَلِّقُ<sup>(٤)</sup>  
تُمسى وتُصبح ضارباً من دونه بِمَهَنَدٍ منه الحتوفُ تفرِّقُ

وهو شعر سياسي كسابقه يرمي الشاعر من ورأه إلى بيان فضل ابن طولون  
على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه في البلاد  
التي يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحرى ، قصيدة طويلة في مدح أحمد بن طولون  
ومنها<sup>(٥)</sup> :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلَ واسعَ ولا العيشَ طلَ في غمضارته رطْبُ

(١) في الكندي ( يطيب . . . لكم ) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .

(٢) في سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة توفية  
هناك في معنى هذه القصيدة :

(٣) الكندي ص ٢٢٨ .

(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .

(٥) ديوان البحرى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أمدح عمال الطَّسَاسِيحِ رَاقِبَا

إِلَيْهِمْ ، وَلى بِالشَّامِ مُسْتَمْتِعٌ رُغْبٌ<sup>(١)</sup>

وعند أبي العباس لو كان دانيلاً

نواحي الفناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلائاً نبتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما يُنَوَّلُ أو يحبو

ثم يصف الخارجين عليه ويذمهم فيقول :

وكانوا ثمودَ الحِجْرِ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَقُوعَ العَذَابِ ، وَأُخْصَى لَهُمْ سَقْبٌ<sup>(٢)</sup>

وما شك قوم أوقدوا نارَ فتنةٍ وَسِرَّتْ لَهُمْ ، فِي أَنَّ نَارَهُمْ تُخْبَو

كأن لم يروا « سِيا الطويل » وجمعه وَمَا فَعَلْتَ فِيهِ وَفِي جَمْعِهِ الحَرْبِ<sup>(٣)</sup>

ولو لم يحجز لُوْلُوٌّ بِفِرَارِهِ لَكَانَ لِصَدْرِ الرِّيحِ فِي لُوْلُوٍّ ثَقْبٌ<sup>(٤)</sup>

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مَخَاذِيلٌ لَمْ يَسْتُرْ قِضَائِحَ فَعْلِيهِمْ وَفَاءٌ ، وَلَمْ يَنْهَضْ بِغَدْرِهِمْ شَغْبٌ

أخاف كَأَنِّي حَامِلٌ وَزَرَ بَعْضُهُمْ مِنْ الذَّنْبِ أَوْ أَنِّي لِبَعْضِهِمْ إِلْبٌ

وما كان لي ذنب فأخشى جزاءه وَعَفْوِكَ مَرُّ جَوْثٍ وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ

(١) الطَّسَاسِيحُ = النواحي : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذي أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصام كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سِيا الطويل : كان حاكم على أنطاكية . قتل سنة ٢٦٥ في معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع في عطائه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه . ولامه على تعرضه لهذا المهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلُوُّ الجهل ماُعدَّ هَيِّنًا      تكبُّدُ سُخْطِي واضِطِّلاءُ حَرِيقِي  
ثم يقول فيه هاجباً :

وعاهرة أدت إلى عَشِيرِ عَاهِرِ      مَسَاهِرَةِ كَلْبٍ فِي الكلابِ عَرِيقِ  
لَيْلِيُخِ أَوْ طُولُونِ يُعْمَزَى ، فقدحوت      على اثنتين : زوجٍ منهما وعشيقٍ<sup>(١)</sup>  
وهكذا الشعراء يسرفون في المدح والمهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذنة إلى المصيصة ، فأقام بها أياماً ، وعرضت له علته التي كان منها حتفه ، فأغذَّ في السير إلى مصر ، والعملة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب في الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العملة تأتي عليه شيئاً فشيئاً حتى مات في ١٠ من ذي القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتدَّ وجده ، وقال يرثيه<sup>(٢)</sup> :

إلى الله أشكو أسي      عمَّاني كوقع الأسَلِ  
على رجلٍ أروعٍ      يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلِ  
شهابٌ خبا وقُدِّه      وعارضُ غيثٍ أفلِ  
شكَّت دولتي فقده      وقد كانت زينَ الدَّوَلِ  
إذا أمَّه القاصدُونَ      حباؤهم جميعَ الأملِ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته في الدولة ، وهو

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٥٨

أشبهه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه في تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شيء من ذلك .  
وقال ابن داود يهجوّه بعد موته ويفحش (١) :

عَرَّجَ عَلَى الْيَحْمُومِ فَانزَلَ بِهِ      فَاسْلَحْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا (٢)  
ويخاطب هذا القبر فيقول :

يا حفرة النار التي أضرت  
لا تجعلي لبسة جثمانه  
وظل فيها الرجس مدفونا  
إلا الأفاعي والثعابين  
ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد في الأرض مثلهم فيقول :

فعرّج إبليس بها أولاً  
وقل لهم : قد كان يكفيكم  
وعرّج من بعد الشياطينا  
ويهتك المعروف والدينا  
ثم مضى غير فقيدٍ ، ولا  
كان حميداً عُمره فينا  
وقال أيضاً :

مضى غير مفقود وما كان عمره  
لقد زيد في اليعموم بالرجس لعنة  
سوى نعمة للخلق شتاء صيّم  
ولم يسق بالرجوس تربة المقطم  
ولم تبك الأرضون ، لكن تبسمت  
ببشره إبليس عند قدومه  
لقد طهر الأرضون من سوء فعله  
فلا سقيت أجداً منه صوب مزنه  
وأني وفيها شر أولاد آدم !

(٢) اليعموم إسم الجبل الشرقى الذى كان فيه قبره

(١) الكندى ص ٢٣١

واعمل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته ، وهي بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات في صديق له يمدحه ويماتبه ويطمع في خيرات<sup>(١)</sup> :

يا ابن المقفع في البيات ن ويا إياساً في الذكاء  
يا ناظراً في المشكلات العضلات ، ويا ضيائياً  
إيها ، جعلت فداك ! فميم طويتني طي الرداء ؟  
ورغبت عما كنت ترغب فيه من لطف الإخاء  
من بعد أني كنت عندك وابن أمك بالسواء  
فوحق كفك ، إنها كف كأخلاف السماء  
لأخيليك والهوى ولأصبرن عن اللقاء  
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء  
ولأصبرن على رقيقك في ذرى درج العلاء  
فهناك أجنى ما غرست إليك من ثمر الرجاء  
وقال في مغنية جميلة<sup>(٢)</sup> :

جاءت بوجه كأنه قرُّ على قوام كأنه عُصنُ

(١) اسمه « حذار » أحياناً . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عداه مسئولاً عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة في الغزل أزهقها بالبدع فنقلت به ( العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦ ) .

ترنو بعين إذا تعابنها      حسبت أن في جفونها وسن  
حتى إذا ما استوت بمجلسها      وصار فيه من حسنها ون  
غنت فلم يبق في جارحة      إلا تمنيت أنها أذن

وفي هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه الغنية ، ومدح لجمال صوتها ،  
ودليل على فطنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون  
لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النعم الجميل أكبر قسط ينعم به  
الجسد والروح .

ومن شعره في ثقلأ زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقي وهم خارجون<sup>(١)</sup> :

زارني زورٌ نكلتهم      وأصيبوا حينما سلكوا  
أكلوا حتى إذا شبعوا      حملوا الفضل الذي تركوا

وفي سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خارويه إلى دمشق وهزم إسحاق بن  
كنداج ، وتبعه حتى مر من رأى ، قتال القاسم بن يحيى المريعي<sup>(٢)</sup> يمدحه ،  
ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أنا أبو الجيش الأمير بيئته      فشرّد عنا الجور وافتقر المسر  
فإن تك أرض الرقتين به اكتست      ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصر  
فسائل به إسحاق إذ سار نحوه      بجيش كمرض النيل يقدمه النصر  
تباعدت الأقطار منه كثافة      ففي مشرق قطر وفي مشرق قطر  
فأبلس إذ قيل الأمير بيئته

وأضحى ضعيف المقد إذ عُقد الجسر<sup>(٣)</sup>

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) المريعي من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خارويه (المغرب ص ١٠٢)

(٣) أبلس : يئس وتخبر . بلس : بلد بشط القرات .

وَنَارَأَى الْجَيْشَ ابْنَ كَنْدَاجٍ مَقْبِلًا      أَرَاهُ الْمَنَايَا الْحُمْرَ أَعْلَامَهُ الْحُمْرُ  
فَوَلَّى شَرِيداً ذَا ارْتِيَاعٍ كَأَنَّهُ      بِكُلِّ بِلَادٍ ضَائِرٌ مَالَهُ وَكُرُ  
لِئِنَّ مَرّاً إِسْحَاقَ النِّجَاجَ بِنَفْسِهِ      لَقَدْ سَاءَ فِي جَمْعِهِ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ  
فَلَا يُغْبَطُنُ بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ      فَقَدْ كَسَّرَتْهُ كَسْرَةً مَالَهَا جَنْبُرُ

وافقتار العسر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته  
بلا تكاف ولا ثقل .

ويبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه  
فلقية خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن  
يحيى المريعي<sup>(١)</sup> :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ      فليس تقاس إليها فتوحُ  
تسير لها في جميع البلادِ      ركائبٌ تغدو بها وروحُ  
إذا حاد عن أمره حائدُ      أتاح له الحتفَ منه مُتبيحُ  
نصحنا لشر بني ديودادُ      بتحذيره لو أطيع النصيحُ  
ولم يكن الغدر مستقبحا      وفي الغدر شين وعار قبيحُ  
تعاطى نطاحَ كباش الحروبِ      فغودر وهو صريع بطيحُ  
لئن كان ولي سلما صحيحا      فما القلب منه سليم صحيحُ  
أباح حماء فتى لم يزل      يحوط حمى وحمى يستبيحُ  
إذا هو لم يسترح من عدوِّ      فليسَ إلى لذةٍ يستريحُ  
وإن همَّ بالسير لم يثنه      سنيحُ يَمَنُّ له أو يريحُ

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفي البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح  
بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد الجحدي :

وقد رأيت جيوش النصر مُنْزَلَةً  
يوم الثانية إذ ثنى بكرته  
مظفر لم يزل يلقي بطلمعته  
يشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا  
على جيوش أبي الجيش بن طولونا  
في النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا  
كواكب السعد والظير الياميننا  
بالصين من بعدها ، ما استبعد الصيننا  
ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفي المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه  
إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه في ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده  
ثلاثين سنة من الفرات إلى برقه ... على أن يحمل إليه في كل عام مبلغاً .

وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على  
قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة  
٢٨٢ هـ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة .  
ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه في ٩ ذي القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش  
إلى منبويه ( إمبابة ) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات  
بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفي محمد بن سليمان الكاتب ، إلى  
مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائي ، والتقى جيش هارون  
بجيش دميانه في تميمس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث .  
فانهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه في صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بنى طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بنى طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، نخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الأيام »<sup>(١)</sup> .

### ٣ — الشعر في أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :  
أحدها شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتحهم وما كسبوا من نصر مبين .

والثانى شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويشير الأشجان لتكبتهم .

وهو فى الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكير فى أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبشى يتشقى ويمدح القائد الفاتح<sup>(٢)</sup> :

الحمد لله إقراراً بما وهبها	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا <sup>(٣)</sup>
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة الثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدنا	وفتح الظلم والإظلام والكربا
لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة	وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١) (٢، ١) والكندى ص ٢٤٨ .

(٢) الشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عذراء غادره  
محمد بن سليمان أعزهم  
سرى بأسد الشرى، لو لم يرُوا بشرا  
فافتض عذرتها بالسيف واقضيا  
نفسا ، وأكرمهم فى الذاهبين أبا  
أضحى عمرينهم الخطى لا القضيا

إيها علوت على الأيام مرتبة  
هارت بهارون من ذكراك بقعته  
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم  
وكم ترى تركوا من جنة أنف  
أبا على ترى من دونها الرتبا  
وشيب الرعب شيباناً وقد رغبا  
كأنها من زمان غاب زهبا  
ومن نعيم جنى من عذرتهم غضبا

وكان هذه القصيدة من وحى أبى تمام فى فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك  
الوحى فى القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بحسنات البديع ، فمن الصفات  
التي كانت تغلب على الشعر فى هذا العصر ، ثم أرهقته فى المصور التالية .

وقال الحبشى لأبى على الحسين بن أحمد الماذرانى :

هنيئاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها  
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى  
وكنت وشيخان غداة لقيته  
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه  
وما زلت ترى آل طولون قبلها  
وقلدت ما قلده بتحكيم  
تجمع يوم الجمع من كل معلم  
كموسى وفرعون غداة المعظم  
ولم يك يرجوه بكل مرجم  
وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبى يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفرق الأظمان  
لم تبد من حزن على أربابها  
مسرورة بتفرق السكان  
إذ فى الترحل راحة الجيران

رحلوا فلا تزلوا بروض حرهم  
وعداهم سبيل الغمام الداني  
وتمسّمهم سبطوة الرحمن  
وأكف أيديهم عن الإحسان  
وأحقها بتهدم الأركان  
فأثابهم بمثوبة الكفران  
ماذا أريحت مصر منه وما إلى  
أرض العراق ، مضى من البهتان !  
ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول في الموضوع ، أو براعة  
الاستهلال وهي التي تلحظ في الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبارة ، ولا يخفي الشماتة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :  
إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم  
وانظر إلى تلك القصور وما حوت  
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة  
ياقتل هرون اجتثت أصولهم  
لم يقن عنهم بأس قيس إذ غدا  
وعدية البطل الكمي وخزرج  
ذقت إلى آل النبوة والهدى  
فارتع وعجج بمراتع الميدان  
واسرح بزهرة ذلك البستان  
تنبيك كيف تصرف المصران  
وأشبت رأس أميرهم شيبان  
في جحفل لجب ، ولا غسان  
لم ينصرا بأخيها عدنان  
وتمزقت عن شيعه الشيطان

عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدهم عظيما ، ورخاؤهم عميما ، ونعيمهم موفورا  
وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصروحهم ممردة ، وجنائهم ناضرة ،  
ورياضهم عاطرة .

واقراً بعض ما كتبه صاحب النجوم في وصف ديارهم وعزهم قال<sup>(١)</sup> :

ولما ملك خارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس في أرض البستان من الرياحان الزروع في زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتماهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكلك ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً .

وعمل في هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش ، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صُوراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياها ، والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الأخراس الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى في الدنيا .  
وجعل بين يدي هذا القصر فسقية ملاءها زئبقا . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

طيبه كثيرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبيس ، فأف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً في خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملاها من الزئبق ، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدته ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد بالزناير الحرير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرجح ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاي : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه في القصر أيضاً قبة تضاهي قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذي يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً في داره المذكورة داراً للسياح ، وعمل فيها بيوتاً ، كل بيت لسيح ... وكان من جملة هذه السياح سبع أزرق العينين يقال له « زُرْبِق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً في الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السياح ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سحاط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زربق » معها وربض بين يدي خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمي إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريره ربيض بين يدي السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وإن نام خمارويه قعد قريباً منه وتفظن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان في عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً ، لمراعاة زريق له وحراسته إياد ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه في خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلا شعراً بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير . ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

قف ووقفاً بفناء باب السَّاجِ	والقصر ذى الشرفات والأبراجِ
وربوع قومٍ ازعجوا عن دارهم	بعد الإقامة أيماً إزعاجِ
كانوا مصاييحاً إذا ظلم الدجى	يسرى بها السارون في الإدلاجِ
وكان وجوههم إذا أبصرتها	من فضة مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يرام حمامهم	في كل ملحمة وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم	علماً بكل نسيئة وفجاجِ
وعليهم ما عشت لا أدع البكا	مع كل ذى نظره وطرف ساجِ

وقال سعيد القاص (٢) يبكي أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاذ والدين والدنيا التي أصيبت جميعاً بفقده ، وجمل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التي شيدها ، وعن دولته التي أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمه ما بين سحرٍ إلى تحجيرٍ ولم يجر حتى أسلمته يدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .

(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط القرظي ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذي خامر الحشاً  
 وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى  
 تتابع أحداثٍ تحيِّفنَ صبره  
 أصاب على رغم الأنوف وجدعها  
 طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها  
 فبادوا وأضحوا بعد عزٍ ومنعةٍ  
 ثم يبدأ الحديث الخاص ، ويتجه إلى مدح ابن طولون خُلُقاً وخُلُقاً  
 بما يليق بأمير عظيم الأفعال ، على الهمة فيقول :

وكان أبو العباس أحمد ماجداً  
 كأن ليالي الدهر كانت ، لحسنها ،  
 يدل على فضل ابن طولون همةً  
 جميل الحياء لا يبيت على وتر  
 وإشراقها في عصره ، ليلة القدر  
 محلقة بين السماكين والغفر (٢)

ويستشهد بالآثار ، وهي شاهد عدل ، ناطق في صمته بلسان مبين ، ومنها ذلك  
 المسجد الذي بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون :

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة  
 فبالجبل الغربي خِطَّةٍ يشكُرُ  
 يدل ذوى الأبواب أن بناءه  
 بناه بأجرٍ وآسٍ وعمرٍ عمر  
 يعيد مدى الأقطار ، سامٍ بناؤه  
 يخبر عنه بالجبل من الأمر  
 له مسجدٌ يفنى عن المنطق الهذر  
 وبانيه لا بالضنين ولا الغمر (٣)  
 وبالمرمر المسنون والجص والصخر (٤)  
 وثيق المباني من عقود ومن جذر

(١) الوقيد والوقود : الخطب وشبهه . (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار .

(٣) الضنين = الشحيح . الغمر = الحامل الذي لم يجرب الأمور .

(٤) آس = نوع من الشجر . العرعر = شجر السرو . المسنون = المصقول .

فسيحُ الرحابُ يَحْسِرُ الطرفُ دونه  
وتَنُورُ فرعونَ الذي فوق قُلَّةِ  
بني مسجداً فيه ، يفوق بناؤه  
تحال سناً قنديه وضيائه

وعينُ معينِ الشرب ، عينُ زكية  
كأن وفود النيل في جنباتها  
فأرفاها مستنبطاً لمعينها  
يمر على أرض المافر كلها  
قبائل لا نوء السحاب يدها

ولا تنس مارستانه واتساعه  
وما فيه من قوَامِهِ وكفائته  
فلاميت القبورِ حسنُ جهازه

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً  
ترى أراً لم يبق من يستطيعه  
مأزُ لا تبلى وإن بادَ ربُّها  
لقد ضمَّنَ القبر المقدَّر ذرعه

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهي عقدهم فتنازت جواهره .  
قال :

وقام أبو الجيش ابنه بعد موته  
كما قام ليثُ الغاب في الأسل السَّمَر

أنته المنايا وهو في أمن داره  
كذاك الليالي من أعارته بهجة !  
وورث هرون ابنه تاج ماجد  
وقد كان « جيش » قبله في محله  
فقام بأمر الملك هرون مدة  
وما زال حتى زال والدهر كاشح  
يذكرهم لما مضوا فقتابوا  
فن بيك شيئاً ضاع من بعد أهله  
ليبيك بنى طولون إذ بان عصرهم  
وورد كتاب المكتفي بولاية الحسين بن أحمد الماذرائي على الخراج وجعل إليه  
النظر في أمر بنى طولون وضياعهم .

### ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد  
ابن علي الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفي  
إليهم رجلاً يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

أميرنا يابن الهليل الفرر  
صدورنا . وقيت من كل حذر  
شفيت من عدونا أبي الأغر  
إذ جاء في الشوك إلينا والشجر

في جَحْفَلِ كُوجٍ بِحُرِّ قَدَزِ خَرِّ      يتبعه أهل البوادي والحضر  
صبرت إذ لا قيته وما صبر      فمرّ في أسرع من لمح البصر  
يقطر منه بوله قطر المطر      أحدث فوق سرجه وما شمعر  
شفيتنا من تركهم مع الخزر      ثم عفا أميرنا لما قدر  
وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزاءه  
ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبشي<sup>(١)</sup> في أبي الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصرَ وما نالها      وشردتَ بالخوفِ من غالها  
تلافيتها بمد إدارها      وأقبلتَ تطلبُ إقبالها  
وكادت تووّه شوقاً إليك      وتظهرُ بالشوقِ بلبالها  
وما شوقها كان من طبعها      ولكن ربك أوحى لها  
لقد فرّج الله كرب النفوسِ      وبلغها فيك آمالها  
ولما رأيناك في مصرنا      منحننا الإمارة إجلالها  
وما زلتَ تطلبها همّةً      وتركب بالسيف أهوالها  
وتملمُ نفسك أن الأمور      رَ إِمّا عليها وإمّا لها  
تمنّوا لِقاكَ فلما راوكَ      رأوا للمنيةِ إظلالها  
وصرّوا يطيمون في كل شيء      رأوه المنايا وإزالها  
وكان أبوك خليج العُفّاةِ      وبحر الثغور التي عالها  
به كانت الروم في أمنها      تفزّعُ للذنبِ أطفالها

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث في الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذي نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليلج مسير أبي شجاع فأتك المتضدى إليه ، ومسير دميانة في المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحماني بالنويرة ، وعسكر ابن الخليلج بباب المدينة ، وسار في ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليلج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليلج في منزل رجل يقال له ( تريك ) .

قال سعيد القاص لبدر الحماني (١) :

حالت معارفهم إلى إنكارٍ	وغدا الخميس لهم بيومٍ بوارٍ
وتقاطموا وتداروا وتنافروا	وتلاعنوا فيها كأهل النار (٢)
وأتوك بين مُعذِرٍ في عذُرِهِ	حجلٍ وبين مصرَح الإقرار
وترعزت تلك الرماح فصورت	ركن القطم في حفيرٍ هارٍ
طلعت نجومٌ ، في الرِّماح بروجها	فسقطن إذ طلعت نجومٌ قُدار
لما أنجلي ذلك الغبار رأيتهم	صرعى وقد لبسوا بريم غبارٍ
فاسعد بنصر الله والفتح الذي	عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة في مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشري والحسين بن أحمد الماذرائي ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها في ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليلج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام منتزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً . ودخل فاتك الفسطاط في عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « ص » « إن

ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس في الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليلج في ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليلج  
وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .  
ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء في هدمه في شهر رمضان سنة ٢٩٣  
وبيعت أنقاضه ودر كانه لم يكن .  
وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر في الشعر العربي لأول مرة  
قصائد متعددة في آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد في معانيه ، محزن في نغماته ،  
متنوع في أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه : (١)

من لم يرَ الهدم للميدان لم يرَهُ      تبارك الله ما أعلاه وأقدرَهُ (٢)  
لو أن عين الذي أنشاه تبصره      والحادثات تماديه ، لأكبَرَهُ  
كانت عيون الوزى تفتشى لهيبته      إذا أضاف إليه الملك عسكره  
ابن الملوك التي كانت تحل به      وأين من كان بالإتقان دَبَرَهُ  
وأين من كان يحميه ويحرسه      من كل ليث يهابُ الليثُ منظره  
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم      وخطرب البلى فيه فدَعَثَرَهُ  
وأخلق الدهر منه حسن جده      مثل الكتاب محاللعصرانِ أسطره  
دَكَّتْ مناظره واجتث جوسقه      كأننا الحسفُ فآجاء فدَمَرَهُ  
أوهبَ إعصارُ نارٍ في جوانبه      فماد معروقه للعينِ منكره  
كم كان يؤوى إليه في مقاصره      أحوى أذن غصنِض الطرفِ أحوَرَهُ  
كم كان فيه لحم من مشرب غدقٍ      فبِ طرفِ الردى فيه فكَدَرَهُ

(١) الكندي ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليستقيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه      أمانه المَلِكُ الأعلى فأقبره  
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر      طوبى لمن خَصَّه رُشد فذكره!

وقال أحمد بن إسحاق الحِكر<sup>(١)</sup> :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهر — تراها فانظر إلى الميدان  
تنظر البثَّ والهموم وأنوا      عا توات به من الأشجان  
يعلم العالمُ المبصر أن الدهر — فيما تراه ذو ألوان  
أين ما فيه من نعيم ومن عيد      ش رخي ونضرة وجنان  
أين ذاك المسك الذي ذيفَ بالعدن      بهر بحتاً وعلَّ بالزعفران  
أين ذاك الخز المضاعف وال      وشى وما استجلبوا من الكتان  
أين تلك القيان تشدو على الـ      فرش بما استحسنوا من الألمان  
دور الدهر آل طولون في هـ — وة قفر مسكوتها غير دان  
وأعاض الميدان من بعد أهليه —ه ذئاباً تموى بتلك المغاني

وقال سميد القاص<sup>(٢)</sup> :

وكأن الميدان ثكلى أصيبت      بحبيبٍ صباح ليلة عرس  
تنفشى الرياح منه محلا      كان للصون في ستور الدمقس  
ولفرش الإضريح والبُسطِ الدير      باج في نعمة وفي لين مس  
ووجوه من الوجوه حسان      وخدود مثل اللآلي ملس  
كل كحلاء كالغزال ونجلا      رداح من بين حور ولعس

(١) روى هذا الشعر في المخطوط ج ١ ص ٣٢٥ منسوباً إلى أحمد بن إسحاق الجفري .  
وهو شاعر نحوي مصري ترجم له ياقوت باختصار في معجم الأديباء ج ٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١  
(٢) السكندی ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأرز فاضحى الجديد أهدام لبس  
وكأنه يقتنى آثار البحترى فى إيوان كسرى بجرأ وقافية وعبارات . ولا شك  
أن سينية البحترى هى التى أوحى إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم<sup>(١)</sup> :

يا منزلا لبني طولون قد دثرا سقاك سوب الغواذى القطر والمطرا  
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا  
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا  
ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .  
حرب مع الغرب :

وكانت المغرب نائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك  
إلى والى مصر ، أبى منصور تسكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة  
ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه «حباسة» قاد المغاربة  
إلى اسكندرية فدخلها فى سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سينا  
إلى مصر مددا لتسكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد  
ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تديرها ، وقدم معهما أحمد بن كيبلغ .  
وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من  
جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو<sup>(٢)</sup> :

الأشق جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاح فيك للعذل مطمعا

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) الكندى ص ٢٧١

لما دهم الإسلام من فجح حادث  
لصرع إخوان على الدين صرّعوا  
فاتوا كراما ما استضيّموا ، أعزّة  
ألم ترهم يوم الخميس وقد غدا  
وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم  
فصادمهم في الناكثين فأبدوا  
فولى بخزى طوقته كتامة  
ألوف أباد القتلُ جمّ عديدهم  
ترى القوم صرعى في الخلاف جوائما  
وطيف بهام الفاسقين على القنا  
وكانت لحزب الكفر إذ ذاك عطفة  
فصلى على تلك النفوس مليكها  
وليس من شك في أن هذا الشعر قيل بعد الواقعة بقليل ، كما يدل على ذلك  
تعيين يوم الخميس ، وندرك أنه شعر يختلف عما سبقه من شعر الحوادث ، فهو  
شعر ديني حماسي . شعر يخشى أن يتصدع الإسلام لمصرع من ماتوا في الدفاع  
عنه ، ويصف أعداءهم بالفسق والخروج على الدين وأنهم حزب الكفر ، وانظر إلى  
ما فيه من إنصاف اقتضى أن يصف ما فعله أعداؤه بأشياعه ، وترجم على من قتل  
من رجاله ، وسأل الله لهم حسن الثواب .